الإسلام والعولمة

إعداد

أ.د/ عزت علي عيد عطية

كلية أصول الدين بالقاهرة

الحاجة إلى العولمة :

يدرك الناظر فى أحوال الناس أن مصالحهم الحيوية لا يمكن أن تتحقق على الوجه المطلوب إلا بالتعاون ، وقيام كل واحد منهم بما يستطيع لخدمة المجموع ، واطمئنان كل فرد إلى مساهمة الجميع فى خدمته .

ولا يتحقق ذلك إلا فى إطار نظام يعتمد العدل فى الحكم ، والسمو فى الخلق ، ويوازن بين مصلحة الفرد ومصلحة المجموع ، ويحدد الحقوق والواجبات ، ويعمل على تيسير سبل السعادة لكل فرد مهما كانت ظروفه الخاصة ، وقدراته المحدودة .

ولا يستطيع فرد أن ينفصل بحياته عن الآخرين ، ولا تملك جماعة أن تنأى بنفسها عن غيرها من الجماعات . . فالإنسان مدنى بالطبع ، وتحصيل القوت الضرورى لا يتيسر له إلا باجتماع جهود من غيره ، وكذلك الأمر فى لباسه ومسكنه وتعليمه وعمله وسائر ممارسات حياته . .

يقول ابن خلدون فى مقدمته . . « وإذا كان التعاون حصل للإنسان القوت للغذاء والسلاح للمدافعة ، وتمت حكمة الله فى بقائه وحفظ نوعه . . فالاجتماع ضرورى للنوع الإنسانى ليكمل وجودهم ، ويتحقق ما أراده الله تعالى من اعتمار العالم بهم ، واستخلافه إياهم ، وهذا هو معنى العمران »[1] .

والعمران الذى ذكره ابن خلدون يتمثل فى بيئة صغيرة ، أو دولة محدودة ، أو سلطنة تخضع لها عدة دول . .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٣٩ دار الشعب .

لكن تمامه وكماله يشمل كوكب الأرض بما عليه ، وقد يمتد أكبر من ذلك فيشمل عددا من الكواكب ، وهو مايقصد فى عصرنا الحاضر بالعولمة . أى اتحاد البشر جميعا فى نظام متناسق يحقق الخير للجميع ، ويزيل كل العوائق من الطريق ..

ولا تقتصر العولمة على الوفاء بالمطالب المادية للناس بل تستلزم الوفاء بالمطالب العلمية والثقافية والاجتماعية والبيئية وتواجه ما فى العالم من اختلاف بين الناس ، وتوائم بين الإمكانات والمطالب ، وتوجه الجهود لخدمة الجميع ..

فلابد لتحقيق العولمة من توافر عدة أمور:

١ — حرية الحركة فى إطار النظام العام بما ييسر تحصيل المنافع وتبادل الخبرات ، وتحول العالم كله إلى قطر واحد يتحرك المرء فى جوانبه كما يتحرك بين بلاده ، ويتصرف كما يريد فى إطار النظام العام .

٢ — حرية التجارة وانتقال رءوس الأموال واستثمارها على الوجه النافع للجميع .

٣ — التعليم الذى يكفل لكل فرد الوصول إلى أعلى الدرجات ، ويسهل الوصول إلى وضع كل إنسان فى موقعه الذى تؤهله جهوده له .

٤ — حرية التعبير مع التزام الآداب العامة ، والحرص على الحقائق على ماهى عليه ، ومقاومة أساليب التزييف والمحاباة والتلاعب بالأفكار.

٥ — ويجمع ذلك كله نظام يجمع محاسن كل نظام فى العالم اليوم ، ويوازن بين حقوق الفرد والمجتمع ، وييسر للجميع ما فيه صلاح الدنيا والآخرة ، كل بحسب ما ينتهى إليه اعتقاده وما يبنى عليه هذا الاعتقاد بغير تصادم أو اضطراب أى نتمسك جميعا فيما نتفق عليه ، ونختلف — فى

غير منازعة — فيما ينفرد كل منا به ، فلا يجبر أحد غيره على مالا يوافقه ولا يمنع أحدا من أن يتمسك بما يراه محققا لمطالبه .

الدين والعولمة :

عرض ابن خلدون فى كلامه عن العمران إلى قضية مهمة هى قضية الارتباط بين العمران والدين فقال:

« إن الاجتماع إذا حصل للبشر ، وتم عمران العالم بهم ، فلابد من وازع يدفع بعضهم عن بعض لما فى طباعهم من العدوان والظلم ، وليست السلاح التى جعلت دافعة لعدوان الحيوانات العجم كافية فى دفع العدوان عنهم لأنها موجودة لجميعهم ، فلابد من شئ آخر يدفع عدوان بعضهم عن بعض ، ولا يكون من غيرهم لقصور جميع الحيوانات عن مداركهم والهاماتهم ، فيكون ذلك الوازع واحدا منهم يكون له الغلبة والسلطان [وهو الحاكم ملكا أو رئيسا بنظام الحكم الذى يسير على أساسه].

قال : وهذا الحكم الوازع إنما يكون بشرع مفروض من عند الله يأتى به واحد من البشر [يتميز بما أودع الله فيه من خواص هدايته] ، كما قال الفلاسفة استنادا إلى أهل الأديان .

هذا ما ذكره ابن خلدون فى مقدمته حاكيا عن الفلاسفة ، ثم فاجأنا بقوله : « وهذه القضية للحكماء غير برهانية ، إذ الوجود وحياة البشر قد تتم من دون ذلك بما يفرضه الحاكم لنفسه ، أو بالعصبية التى يقتدر بها على قهرهم وحملهم على جادته ، فأهل الكتاب والمتبعون للأنبياء قليلون بالنسبة إلى الذين ليس لهم كتاب ، فإنهم أكثر العالم ، ومع ذلك لهم الدول والآثار فضلا عن الحياة »(١) .

(١) المقدمة ص ٤٠

وإذا كانت مفروضة من الله بشارع يقررها ويشرعها كانت سياسة دينية نافعة فى الحياة الدنيا وفى الآخرة . .

وعلل لذلك فقال : وذلك أن الخلق ليس المقصود بهم دنياهم فقط ، فإنها كلها عبث وباطـــل ، إذ غايتها الموت والفناء ، والله تعالى يقول : « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا » ؟

فالمقصود بهم إنما هو دينهم المفضى بهم إلى السعادة فى آخرتهم (صراط الله الذى له ما فى السماوات وما فى الأرض) .

فجاءت الشرائع بحملهم على ذلك فى جميع أحوالهم من عبادة ومعاملة حتى فى الملك الذى هو طبيعى للإجتماع الإنسانى ، فأجرته على منهاج الدين ليكون الكل محوطا بنظر الشارع » . .

وقد قارن بين ألوان الحكم فقال :

« فما كان منه بمقتضى القهر والتغلب وإهمال القوة العصبية فى مرعاها، فجور وعدوان ، . . كما هو مقتضى الحكمة السياسية .

وما كان منه بمقتضى السياسة وأحكامها فمذموم أيضاً لأنه نظر بغير نور الله (ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور) ، لأن الشارع أعلم بمصالح الكافة فيما هو مغيب عنهم من أمور آخرتهم ، وأعمال البشر كلها عائدة عليهم فى معادهم من ملك وغيره ، قال ﷺ (إنما هى أعمالكم ترد عليكم)[1] .

وأحكام السياسة إنما تطلع على مصالح الدنيا فقط (يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا) . . ومقصود الشارع بالناس صلاح آخرتهم ، فوجب بمقتضى الشرائع حمل الكافة على الأحكام الشرعية فى أحوال

(١) المقدمة ص ١٦٩، ١٧٠ وورد معناه فى الحديث القدسى المشهور .

والقضية المثارة هنا هى : ما يكون عليه انتظام العمران بالناس ، هل هو الدين ؟ أو غير الدين ؟

فالفلاسفة استنادا إلى المتدينين يقولون بأن العمران لا ينتظم إلا على أساس من الدين .

وابن خلدون يرى أنه قد ينتظم بغير الدين .

ويستدل بانتظام العمران لغالب العالم فى عصره وقبل عصره لكثير من الناس بغير الدين .

ولا يعنى ذلك أن ابن خلدون ينكر أثر الدين فى سلامة العمران وصلاحه وإنما أنكر اشتراطه لوجود العمران ولو فى أدنى حالاته .

يقول ابن خلدون :

لما كانت حقيقة الملك أنه الاجتماع الضرورى للبشر ، ومقتضاه التغلب والقهر اللذان هما آثار الغضب والحيوانية كانت أحكام صاحبه جائرة عن الحق ، مجحفة بمن تحت يده من الخلق فى أحوال دنياهم ، لحمله إياهم فى الغالب على ما ليس فى طوقهم من أغراضه وشهواته ، ويختلف ذلك باختلاف المقاصد من الخلف والسلف منهم ، فتعسر طاعته لذلك ، وتعنى العصبية المفضية إلى الهرج [الفوضى] والقتل .

فوجب أن يرجع فى ذلك إلى قوانين سياسية مفروضة ، يسلمها الكافة وينقادون إلى أحكامها ، كما كان ذلك للفرس وغيرهم من الأمم ، وإذا خلت الدولة من ذلك لم يستتب أمرها ولم يتم استيلاؤها (سنة الله فى الذين خلوا من قبل) . .

فإذا كانت هـــذه القوانين مفروضة من العقلاء وأكابر الدولة وبصرائها كانت سياسة عقلية . .

دنياهم وأخراهم ، وكان هذا الحكم لأهل الشريعة ، وهم الأنبياء ومن قام فيه مقامهم وهم الخلفاء .

فالملك الطبيعى هو حمل الكافة على مقتضى الغرض والشهوة .

والسياسى هو حمل الكافة على مقتضى النظر العقلى فى جلب المصالح الدنيوية ودفع المضار .

والخلافة هى حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعى فى مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها ، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة ، فهى فى الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع فى حراسة الدين وسياسة الدنيا به[1] .

وقد أصر ابن خلدون على رأيه الذى ذكره فى أول المقدمة ، وهو أن النظام الذى يقود الأمم يبعث عليه العقل ، ولا يتوقف قيامه على الأمر الدينى باقامته ، قال : لأن الوازع قد يكون بسطوة الملك وقهر أهل الشوكة ولو لم يكن شرع ، كما فى أمم المجوس وغيرهم ممن ليس له كتاب أو لم تبلغه الدعوة[2] .

وأكده مرة ثانية فقال :

« العمران ضرورى للبشر ورعاية مصالحه كذلك ، لئلا يفسد إن أهملت ، والملك وسطوته كان فى حصول هذه المصالح ، نعم إنما تكون أكمل إذا كانت بالأحكام الشرعية لأنه أعلم بهذه المصالح ، فقد صار الملك يندرج تحت الخلافة إذا كان إسلاميا ويكون من توابعها ، وقد ينفرد إذا كان فى غير الملة .

(١) المقدمة ص ١٦٩ ، ١٧٠ (٢) ص ١٧٠

ونتنبه هنا إلى أن ما ظنه ابن خلدون نظاما سياسيا له أصل شرعى ، لكنه لم يبق منه إلا ما احتاج إليه الناس فى مصالحهم ، فصاغوه على أنه تجارب ، واستعملوه على أنه سياسة ، وحفظوه على أنه ضرورة تقتضيها الحكمة ، ونسوا أو تناسوا أنه جزء من الدين . أو خلعوا عنه صورة الدين .

قال أبو عمرو الزجاجى : كان الناس فى الجاهلية يتبعون ما تستحسنه العقول والطبائع ، فردهم النبى ﷺ إلى اتباع الشرائع ، فالعقل الصحيح يستحسن محاسن الشريعة ، ويستقبح ما تستقبحه[1] .

وقال الراغب الأصبهانى :

اعلم أن العقل لن يهتدى إلا بالشرع ، والشرع لا يتبين إلا بالعقل ، فالعقل كالأس والشرع كالبناء ، ولن يغنى أس ما لم يكن بناء ، ولن يثبت بناء ما لم يكن أس [أساس] .

قال : والشرع عقل من خارج . والعقل شرع من داخل ، وهما متعاضدان بل متحدان ، ولكون الشرع عقلا من خارج سلب الله تعالى اسم العقل من الكافر فى غير موضع من القرآن . . ولكون العقل شرعا من داخل قال فى وصف العقل : « فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم » فسمى العقل دينا ، ولكونهما متحدين قال (نور على نور) أى نور العقل ونور الشرع ، ثم قال (يهدى الله لنوره من يشاء) فجعلهما نورا واحدا .. فالشرع إذا فقد العقل عجز عن أكثر الأمور عجز العين عند فقد الشعاع .

قال : واعلم أن العقل بنفسه قليل الغناء لا يكاد يتوصل إلا إلى معرفة

(١) حلية الأولياء ج ١٠ ص ٣٧٦

كليات الأشياء دون جزئياتها نحو أن يعلم جملة حسن اعتقاد الحق وقول الصدق وتعاطى الجميل وحسن استعمال العدالة وملازمة العفة وتجنب ذلك من غير أن يعرف ذلك فى شىء شىء .. والشرع يعرف كليات الأشياء ويبين ما الذى يجب أن يعتقد فى شىء شىء ، وما الذى هو معدلة فى شىء شىء ، ولا يعرفنا العقل مثلا أن لحم الخنزير والدم والخمر محرم ، وأنه يجب أن يتحامى من تناول الطعام فى وقت معلوم ، وأن لا تنكح ذوات المحارم ، وأن لا تجامع المرأة فى حال الحيض ، فإن أشباه ذلك لا سبيل إليها إلا بالشرع ، فالشرع نظام الاعتقادات الصحيحة والأفعال المستقيمة ، والدال على مصالح الدنيا والآخرة ، ومن عدل عنه فقد ضل سواء السبيل »[1] .

العولمة فى إطار الإسلام :

خاطب الإسلام الناس جميعا ، وحرص على التوجيه العام .

فالناس فى إطار الإسلام من أصل واحد يجمعهم نسب واحد ، ويوجد بينهم تجانس عام .

يقول تعالى :

« ياأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا » .

(١) تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين (دار الدعوة حلب) ص ٦٣ — ٦٥

وهذه الآية افتتح الله بها سورة النساء ثم أعقبها بأحكام تتصل بحياة البشر ، صغاراً وكباراً ، رباهم آباؤهم أو رباهم غيرهم ، وتحدد تفاصيل الأحكام فى إطار الإسلام بما يلزم البشرية فى كثير من الشئون .

ونلبه هنا إلى الفرق بين دين الإسلام ودولة الإسلام ، فدين الإسلام يحمل نظاماً إلهيا لتسيير العالم على الوضع الذى أراده الله من الناس فيما بلغهم به الرسول ﷺ .

أما دولة الإسلام فجزء من العالم الواسع الذى يتوجه إليه الخطاب الإسلامى ، سواء أقامت بواجبها فى حمل الرسالة إلى الناس وإعطاء الواقع العملى من سلوك المسلمين لتطبيق أحكام الإسلام أو قصرت فى شىء من ذلك؟

وقد تكفل الله بحفظ الدعوة الإسلامية ، كما تكفل ببيانها للناس ، « ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حى عن بينة » .

ويقول سبحانه : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير » .

وهذه الآية تتلو آيات كثيرة من سورة الحجرات يتوجه الخطاب فيها إلى المؤمنين تنبيها إلى أن الخطاب وإن وجه بالخصوص إلى أهل الإيمان فإن غيرهم من الناس داخل فيه . . لكن الدين العالمى قد يخاطب بعض الطوائف أو الملل أو النحل أو بعض الأشخاص لزيادة التنبيه للمخاطب بخصوصه مع دخوله فى كل خطاب عام ، ودخول المخاطبين بدرجة من الدرجات فيمن يوجه إليه الخطاب .

ويطول بنا المقام لو تتبعنا الخطاب العام الموجه من الإسلام لكل أفراد العالم فضلا عن غيرهم ممن يدخل فى نطاق المخاطبين لكننا نذكر بعض الصيغ المستعملة فى النداء وتحديد من يتوجه إليه الخطاب .

« يا أيها الناس — يا بنى آدم — يا أيها الإنسان — يا معشر الجن والإنس » ...

وبهذا الخطاب العام الذى شمل العالم وغيره فتح الإسلام الطريق أمام العولمة على أوسع نطاق .

يقول ابن كثير فى تفسير آية الحجرات : فجميع الناس فى الشرف بالنسبة الطينية إلى آدم وحواء عليهما السلام سواء ، وإنما يتفاضلون بالأمور الدينية وهى طاعة الله تعالى ومتابعة رسوله ﷺ ، ولهذا قال الله تعالى بعد النهى عن الغيبة واحتقار بعض الناس بعضا منبها على تساويهم فى البشرية : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » .

ثم ذكر من الأحاديث ما يشهد لذلك :

(ا) روى البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سئل رسول الله ﷺ أى الناس أكرم ؟ قال : أكرمهم عند الله أتقاهم .. قالوا : ليس عن هذا نسألك .. قال : فأكرم الناس يوسف نبى الله بن نبى الله بن نبى الله بن خليل الله قالوا : ليس عن هذا نسألك ، قال : فعن معادن العرب تسألونى خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا ...

(ب) وفى رواية لمسلم : « إن الله لاينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » .

(ج) وروى ابن أبى حاتم من خطبة الرسول ﷺ فى فتح مكة قال : « يا أيها الناس ، إن الله تعالى قد أذهب عنكم عيبة الجاهلية وتعظمها بآبائها ، فالناس رجلان : رجل برقى كريم على الله تعالى ، ورجل فاجر شقى هين على الله تعالى » ..

(د) وروى أحمد أن رسول الله ﷺ قال : إن أنسابكم هذه ليست بمنسبة على أحد ، كلكم بنو آدم ، طف الصاع لم تملؤه ، ليس لأحد على أحد فضل إلا بدين وتقوى ، وكفى بالرجل أن يكون بذيا بخيلا فاحشاً .

وفى رواية : « الناس لآدم وحواء ، طف الصاع لم يملوه ، إن الله لايسألكم عن أحسابكم ولاعن أنسابكم يوم القيامة ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

(هـ) وروى مسلم وغيره أنه ﷺ قال : « أربع من الجاهلية لاتتركهن أمتى : الفخر بالأحساب ، والطعن فى الأنساب ، والاستسقاء بالنجوم ، والنياحة » .

وبهذا وغيره أقام الإسلام نظام العالم فيما يتصل بتقدير الناس ورعاية حقوقهم ، وعدم التفرقة بينهم على أساس الجنس أو النسب أو المال أو المقدرة العلمية أو العملية . أقام ذلك كله على أساس جديد .

ولم يكتف الإسلام بذلك بل وجه أنظار العالم إلى منة الله عليه وفضل ما سخره لخلقه فى البر والبحر والجو ، فى السماء وفى الأرض ، فى الدنيا والآخرة ولم يجعل لأحد فى ذلك امتيازا على غيره .

وآيات الخلق والتدبير ، والتيسير والتسخير تشمل أغلب القرآن . وللشيخ طنطاوى فى تفسير الجواهر كلام متكرر ينبه فيه إلى قيام غير المسلمين باستثمار ما يسر الله من النعم واكتفاء المسلمين بالاستفادة بما استثمروه .

ويرى كما يرى غيره أن إهمال المسلمين فى القيام بما طلب منهم فى هذا الجانب نزل بهم فى مراتب السيادة ، ومكن لغيرهم أن يحول بينهم وبين تطبيق الإسلام ، وأن يضغط بكل ما يستطيع لتسيير الحياة كما يريد .

والناظر فى رسالات الرسل عليهم السلام فى ضوء ما لدينا نصوص يتبين بجلاء ظاهرة البيئية والانحصار فى الرسالات السابقة على الإسلام، يقول الرسول ﷺ عن رسالته ورسالتهم: (وكان كل نبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة) وقال: (وختم بى النبيون) ، وقال: « لانبى بعدى » .

فرسالته ﷺ لا يغنى عنها سابق ولا حاجة معها إلى لاحق، قال تعالى: (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين) ، وقال: (اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون، اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا) .

وقال: « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » .

وقد كان كل نبى يرسل إلى قومه وكان النبى ﷺ للعالمين نذيرا .

وقد كانت الأمم تتقيد فى سلوكها على مقتضى الشرع بنص الرسول الذى حمله وبلغه عن الله سبحانه . فإذا لم تجد نصا توقفت عن العمل وأصبحت الحاجة ماسة إلى ورود نص جديد، فإما أن ينزل الله نصا على النبى إذا كان موجودا، وإما أن يبعث نبيا جديدا إذا ظهرت الحاجة بعد وفاة النبى السابق .

وكان كل قوم يتقيدون بنصوص نبيهم الذى أرسل إليهم، فإذا بلغهم نص نبى معاصر فى المسألة التى تحتاج إلى نص كان ما حدده نبيهم هو المقصود دون سواه .

ومما يدل لذلك قول الله سبحانه عن بنى إسرائيل: (وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغدا وادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين، فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء بما كانوا يفسقون) .

لقد أمروا بدخول قرية عينت لهم، وحددت لهم كيفية الدخول، وعين لهم القول الذى يقولون — فلما بدلوه بغيره عوقبوا على ذلك العقاب الشديد .

وقيد حكمهم بالتوراة نصا ووكل إليهم حفظها، فإذا ما وجد جديد لم يرد النص على حكمه فى التوراة فلابد من نبى يحدد لهم النص الذى يعمل به ناقلا له عن الله سبحانه، وهذا هو السر فى كثرة أنبياء بنى إسرائيل بعد موسى عليه السلام، حتى نزل الإنجيل على عيسى عليه السلام فنسخ بعض التوراة وأحل لهم بعض الذى ورد تحريمه عليهم قال تعالى:

« إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء » .

فالأنبياء ينزل عليهم الوحى ببيان نص التوراة النازل لإزالة كل تحريف وجبر كل نقص، وينزل عليهم الوحى بما يجد من أمور .

والربانيون والأحبار يطبقون نص التوارة على الوقائع وليس لهم حق الإجتهاد لأن الوحى لا ينزل عليهم وإنما يطبقون ما يثبت عندهم عن الأنبياء .

ولما توقف بعث الأنبياء بعد عيسى عليه السلام إلى بنى إسرائيل ظهرت الحاجة إلى نصوص ينزل بها الوحى لتطبق على ما يجد من أحداث .

وجاءت رسالة الإسلام فلم يستجب لها أهل الكتاب، وحكموا على الوقائع التى تجد بغير نص أو وحى أو ادعوا وحيا إلى من يحكم فيهم ما أنزل الله به من سلطان، ومنهم من ادعى أن ما يقول به نشأ عن اتصال مباشر بالله .

وقد اختصت رسالة الإسلام بأمر هام أهلتها له عالميتها من ناحية الزمان والمكان .

لقد أمرت بتطبيق النص الدينى قرآنا وسنة على ما ينطبق عليه من الوقائع فإذا وجد جديد كان الاستنباط من النصوص والحكم بالاجتهاد .

وقد رسم النبى ﷺ قواعد ذلك الاجتهاد فى تطبيقه لنصوص القرآن .

وندرب الصحابة على الاجتهاد فى تطبيق نصوص القرآن والسنة على مالم يرد النص عليه من الوقائع فى عهده ﷺ ثم تابعوا ذلك بعد عهده ، واستمر هذا الاجتهاد قرنا بعد قرن .

وما دام للمجتهد إذا حصل شروط الاجتهاد أجر إذا لم يصل إلى ما يطابق النص على الوجه التام وأجران إذا وصل لذلك — ومرد تحديد المطابقة وعدمها إلى الله — فإن باب الاجتهاد يتسع لكل مايجد من وقائع.

٣ — جمع الإسلام كل ما كان فى الرسالات السابقة فى العقيدة والعبادات والمعاملات ، فما أقره أبقاه ، وما نسخه الله تعالى لم يذكر منه شيء . لأن الناس فى عصر الدعوة لم يكونوا فى حاجة إليه .

قال تعالى « وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه » .

وبذلك شمل بناء الإسلام كل ماقصد من الرسالات السابقة مع الوفاء باحتياجات الأمم اللاحقة قال ﷺ :

ومثلى ومثل الأنبياء قبلى كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة ، فأنا اللبنة وأنا خاتم الأنبياء فما دام البناء قد تم ، فإن الزيادة عليه لاموضع لها من البناء .

وتتميز الشريعة الإسلامية باليسر ورفع الحرج بالمقارنة بالشرائع السابقة عليها .

كما تتميز بشمولها لأحوال الفرد والمجتمع .

وتفتح أمام المسلم العمل فى جميع المجالات .

وتيسر للمسلم مواجهة كل الظروف والتعامل مع جميع المستجدات فى إطار مبادئها العامة الخالدة .

وتحمل للعالم كله أسس السلوك ، وطرق التعامل ، وما يلزم الفرد لتصحيح علاقته مع الله سبحانه ومع الناس .

فهى خلاصة كل الرسالات ، وكمال كل ما وجه الله إليه الناس ، (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) .

عوائق أمام تحقيق العولمة :

إن المتأمل فى أحوال العالم اليوم يجد أن نشاط الناس فيه يتجه إلى تحقيق مصالح القوى على حساب الضعيف ، وأنه لا يوجد فى العالم من يبذل جهدا يذكر لتحقيق العدل ، ومساعدة الضعيف ، وتحقيق التوازن بصورة من الصور النافعة بين الناس .

ويمثل تنظيم العلاقة بين الناس ، والتمييز بين ماهو جماعى وما هو فردى أو جزئى ، وتسيير ذلك بما يحقق مصالح الجميع ، لب المشكلة التى حيرت العالم على امتداد التاريخ الطويل .

فقد سيطرت بعض البلاد على غيرها ، وأدارت شئون جماعات متعددة ، مختلفة المناطق ، متعددة الثقافات ، متنوعة المسالك ، وحاولت تدعيم هذه الادارة بنظام يحقق لها الاستمرار والتوسع حتى تشمل العالم كله لكنها سرعان ما تراجعت إلى الوراء ، فالحضارات الفارسية والرومانية والإسلامية

والامبراطوريات الغربية التى تعاقبت على العالم، وانتشار سلطة للغول والمماليك والأتراك — لم يتيسر عن طريق شىء من ذلك نظام عالمى مستقر يحقق العولمة من الناس.

وواكب ذلك دعوات فكرية، ونظريات فلسفية، وتنظيمات قانونية، حاول أصحابها أن يتوصلوا — كل فى مجاله — إلى عولمة فى جانب أو أكثر من جوانب الحياة فلم يصلوا بذلك كله إلا إلى أقل القليل.

والسبب الأساسى لعدم الوصول إلى العولمة مع هذا الجهد الهائل على امتداد التاريخ — أن الناس فى سعيهم لذلك غلبوا المصلحة الخاصة على مصلحة الجميع، واصطبغت محاولاتهم بصبغتهم البيئية أو الفكرية أو المصلحية مما حاد بهم عن الطريق — كما أنهم لم يتركوا مجالا للاختلاف بين الناس فى إطار العولمة.

من هنا كان تركيزنا على الفصل بين الاسلام كنظام يحقق العولمة، وبين تطبيق المسلمين للإسلام الذى عجز عن الوصول إلى تحقيق العولمة على أساس هذا النظام، ذلك لأن الفشل فى تطبيق النظام أو فهمه قبل محاولة تطبيقه لا يعنى فشل النظام الصالح للتطبيق.

ونستطيع إجمال هذه العوائق أمام العولمة فيما يلى:

١ — الأثرة المادية والرغبة فى الاستحواذ على أقصى قدر ممكن من خيرات الكون.

٢ — استعمال القوة لتحقيق السيادة والاستغلال وهو ما يؤدى إلى الحروب والصراعات والتنافس وضياع الجهود المثمرة.

٣ — الإعلام الموجه لخدمة مجموعة من الناس بعيدا عن الطريق الموصل إلى الحقيقة، المدعم لجوانب الخير والرشاد.

٤ — الضغط والإكراه لتغيير الدين، أو فرض المذهب، أو الاجبار على سلوك معين، وتحويل الآخرين إلى قرود تحاكى وآلات تتحرك على ما يريد القادر على فرض ما يريد.

٥ — إهدار قيمة الفكر أو العمل وفرض سيادة القوة والنفوذ.

٦ — التعالى بالجنس أو القوة والمبالغة فى إيذاء الخصوم.

٧ — احتكار المعارف والاختراعات والتجارب والمعلومات لمنع الآخرين من اللحاق أو التنفس باختيار.

الإسلام يوجه إلى مقاومة هذه العوائق:

يشتمل النظام الإسلامى على ما يزيل هذه العوائق ونركز هنا على ما يلى:

١ — حرية العقيدة .. فالأساس فى الإسلام أن التدين لا يكون إلا عن اختيار، مع تحمل مسئولية هذا الاختيار فيما بين الإنسان وربه، قال تعالى (لا إكراه فى الدين) وقال (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا اعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها).

وللانسان أن ينتقل من الكفر إلى الإيمان لأن ذلك يمثل تقدما فى طريق المسير، أما إذا انتقل من الإسلام إلى الكفر فلا يمكن من الانتكاس لئلا يعوق غيره عن المسير.

وإذا اقتضت العولمة فى فترة من الفترات التوقف عن معاقبة المرتكس إلى الوراء، التارك لدينه، المفارق للجماعة، لإصرار غير المسلمين على مبدأ المعاملة بالمثل وهو عدم معاقبة الكافر إذا دخل فى الايمان من أهل الكفر فللمسلمين العمل بذلك إلى أن يوافق غير المسلمين على اعتبار الفرق بين الانتقال إلى الأمام والارتداد إلى الخلف،

ويتفقوا على سمو المقصد الإسلامى فى هـــذا التفريق . . وهو موقف تكتيكى تقضيه ظروف الحياة لا يغير من نظام الإسلام .

فعدم تطبيق أمر إسلامى فى مجال عملى لرجحان المصلحة فى عدم تطبيقه فى وقت معين أوظروف خاصة لا يعنى إلغاء هذا الأمر أو التسليم بعدم الحاجة إلى تطبيقه ، لـكنه يعنى أن ظروف المسلمين غير مؤهلة لهذا التطبيق إلا إذا بذلت من أجل تطبيقه ما يفوق تطبيق هذا الأمر من المصالح — أو ضيعت أمراً أهم من هذا التطبيق ، إنه تصرف تقضيه سياسة التطبيق وليس تمرداً على التطبيق ، ولا إنـكاراً للأصل الثابت الذى لا يقبل التغيير ... وإلا كان افتئاتا عل الله ، وكذبا على الناس .

٢ — حرية التعبير : لأن نور الإسلام إذا أتيح له الانطلاق سيمحو كل ظلام . وكل مايرد المسلمين من أفـكار وهجوم فالإسلام يحصنهم من أخطاره ويكشف عما فيه من خداع .

٣ — حرية السلوك على أساس من الدين أو الفـكر وظهور الإسلام فى صورة تطبيقية ولو فى مجال السلوك الشخصى ليظهر ما أمتاز به من رعاية لمصالح الناس ، وما اشتمل عليه من سمو فى التعامل ورقى فى الأخـــلاق ، مادام المسلمون عاجزين عن تطبيقه فى مجال الحـكم والسياسة فى بجمل الأحوال .

٤ — الحوار البناء والجدال بغير ظـــلم أو إفتراء لأن الهدف هو الوصول إلى الحق وتحقيق السعادة للجميع .

٥ — تسخير القوة لخدمة الجميع ، وحفظ العدل ، وتحقيق المساواة ، ورد الظلم والاعتداء . . وعدم تميز دولة أوجنس على حساب الآخرين .

٦ — وضع النظم الـكفيلة بتحقيق الخير والسعادة فى مجال العبادات

والمعاملات والمبادلات والثقافات والأفـكار والتعامل مع الـكون فى كل مجالات النشاط ...

المسلمون والعولمة : حاجتها إليهم وحاجتهم إليها :

لا يستطيع المسلمون فى وضعهم الحالى تحديد إطار العولمة ، أو تعديل مسارها . . ولا يقدرون على تجاهلها وعدم التفاعل مع حركة العالم إليها .

فقطار العولمة ينطلق بأقصى سرعته ، ومن يقف فى طريقه فسيصطدم بالقطار . .

وفى العولمة خيرات كثيرة فى مجال الحصول على العلم ، والمساهمة فى الانتاج ، وفتح المجال أمام الإبداع والاستثمار ، وإتاحة الحرية فى التعبير والسلوك ، والمزج بين طوائف الناس المختلفة بما يمكن من المساواة بينهم أمام القانون .

لـكن أهم مخاطر العولمة يتمثل فى إملاء القوى مبادئه ، ونشره القيم السائدة عنده ، واستخدامه وسائل الضغط الهائلة لتسيير الآخرين على وفق ما يريد .

والمسلمون فى مواجهة العولمة يملـكون عقولا ، ويملـكون أموالا ، ويملـكون خبرات فى جميـــع مجالات الحياة تمكنهم من حجز المـكان الملائم فى قطار العولمة .

إنهم يملـكون من القيم والمعارف ما يمكنهم من المساهمة فى تجهيز هذا القطار .

وبغير المساهمة الإسلامية لن يتمكن قطار العولمة من المسير ، وإذا

سار فسيعجز عن مواصلة السير ، وينتهى به السير إلى التعطل أو التفكك فى الطريق ..

إن المسلمين يحملون من القواعد الدينية ما يكفل سعادة العالم فى إطار العولمة ، ويربط برباط السعادة والمودة بين جميع الشعوب .

فالعولمة لايمكن أن تتحقق إلا بتوفير الخير ، وتحقيق الرفاهيـــة ، والسيطرة القانونية على الجميع .

إنها تحتاج إلى أن تمد الإنسان بالطاقة الروحية ، وتبنى نظام التعامل بين الناس على أساس الحق والعدل ، وتلبى نداء القلب والعقل فى تحديد العلاقة بين الإنسان وربه ، وبينه وبين المخلوقين .

وفى الإسلام كما سبق أن قدمنا مايحقق ذلك على أفضل الوجوه .. وحينما يقدم المسلمون ذلك لتحقيق العولمة لايشترطون دخول الناس كلهم فى الإسلام ، لكنهم يطلبون من الناس إن لم يدخلوا فى الإسلام كعقيدة أن يستفيدوا منه كنظام — فنظام الإسلام فى تدبير شئون الحياة لاغنى عنه لتحصيل المقصود من أى نظام — والعدول عنه إلى غيره تفريط فى حق الوجود الإنسانى فضلا عن كونه مخالفة لما ينبغى أن يكون عليه الدين .

وفى الإسلام ما تتفق عليه الديانات المختلفة والنحل المتعددة من حفظ الدين والمـال والعرض والعقل فضلا عن حفظ النفس .

وفيه القيم التى لابد منها فى التعامل بين الناس من العـــدل والصدق والأمانة والرغبة فى الثواب والخوف من العقاب والرحمة بعباد الله بل وبغيرهم من المخلوقات .

وفى الإسلام ما يشبع أشواق النفس ، وتطلعات الفكر ورغبات المستقيمين .

وفيه ما يردع عن الظلم ويقمع الفساد .

والمسلمون فى اطار العولمة يحتاجون إلى الإسلام موحداً للصفوف ، وجامعاً للهمم وموجها للسلوك ، ودافعاً إلى العلم والعمل الجاد ، فالعلم فى نظر الإسلام كالماء والهواء ، ينبغى الحصول عليه ، والاستفادة منه ولا يجوز احتكاره أو التحكم به فى مصير الآخرين ..

وقد وجه النبى ﷺ إلى جرش بالاردن من يتعلم صناعات حربية لاغنى عنها فى مواجهة الحصون المنيعة .

وحفر الخندق حول المدينة على أساس النظام الفارسى .

واستعمل الأساليب الحديثة فى مواجهة ماجد من أمور فبنى المسجد وأقام المنبر ونظم شئون الدولة على أسس تناسب العصر ، وتحقق المقصود من الدعوة والإدارة فى آن واحد .

وكان قادة المسلمين على أرقى مستوى عالمى فيما يتصل بالتعامل مع دول العالم المختلفة .

وما زال المسلمون يديرون شئونهم فى هذا العالم على أساس من القيم الإسلامية الخالدة .

وتتمثل قيمة المسلمين الآن فيما يحملون من قيم إسلامية تحقق للعولمة ، — إذا أخذت بها — الاستمرار والتقدم ، وتزيل عن كاهلها الكثير من الأثقال والأعباء . وتضبط نظام التعامل والسلوك .

وبقدر محافظتهم على هذه القيم فى هذه العولمة يكون موقعهم من

قطارها ، وبقدر ما يفقدون من ذلك يتأخر موقعهم فى هذا القطار . .

هذا وللدكتور محمد عبد الله دراز بحث ممتع عن موقف الإسلام من الأديان الأخرى فصل فيه بين الإسلام بمعناه العام ، وهو التوجه الخالص عن الشرك إلى الله ، والإيمان المطمئن بكل ما جاء من عنده على أى لسان وفى أى زمان ومكان . .

فصل بينه وبين الإسلام الخاص : وهو مجموعة الشرائع والتعاليم التى جاء بها محمد ﷺ وما استنبط منها وبنى عليها من الاجتهاد .

ورأى أن الإسلام بمعناه العام جاء به كل رسول ، ودعا إليه كل نبى ، وعنه يقول الله سبحانه : « إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون » .. ويقول : « وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون » ..

أما الإسلام بمعنى الشريعة الخاصة التى جاء بها محمد ﷺ فصدق لما جاء به موسى ، وماجاء به عيسى عليهما السلام ، وقد أخذ الميثاق على كل نبى أن يصدق بما يجىء به نبى آخر وينصره .. سواء أجاء معه أم جاء بعـــده ؟ ..

وما يحدث من تعديل فى اللاحق لشىء مما جاء به السابق ليس نقضا ولا إنكاراً . وإنما وقوف بالأول عند حده المحدد وأجله المقدر ..

وقسم الشرائع إلى قسمين : خالدة دائمة ، كالقواعد الصحية اللازمة للإنسان والتى لا تتغير بتغير الزمان والمكان من النظافة والنهوية والتدفئة ..

وموقوتة وهى ما تتغير بتغير الزمان أو المكان . كالغذاء اللازم للطفل فإنه لا يكفى لغذاء الشاب أو الكهل ..

ومن هنا اجتمع للدين بشرائعه عنصر الاستمرار وعنصر التجديد .. حتى تم الدين وختمت الرسالات ..

أما إذا تغيرت شريعة دائمة أو عقيدة وانحرفت عن مسارها عند أهل دين معين فإن الشريعة اللاحقة تبين التغيير وتعيد المسار . . ومن هنا كان القرآن مهيمنا على ماسبق من الرسالات ، أى حافظا لها أمينا عليها ، ذاكرا مافيها وما طرأ عليها من تغيير .

وقد يواجه الإسلام إنكاراً ، وقد يواجه جحودا ، لكنه فى نهاية الأمر لا يكف عن البيان ، ولا يتوقف عن الإرشاد [1] . .

وتلك هى رسالة الإسلام فى العالم ، والتى يشترك فى وجوب الالتزام بها المسلمون وغير المسلمين « ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حى عن بينة وإن الله لسميع عليم » ..

---

(١) الدين ط دار السعادة سنة ١٩٦٩ .